مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(١ كورنثوس ٦: ١٢–٢٠)

يا إخوةُ كلُّ شيءٍ مباحٌ لي ولكن ليس كلُّ شيءٍ يوافق* كلُّ شيءٍ مباحٌ لي ولكن لا يتسلَّطُ عليَّ شيءٌ* إنَّ الأطعِمةَ للجوفِ والجوفَ للأطعمةِ وسيُبيدُ اللهُ هذا وتلك. أمَّا الجسدُ فليس للزنى بل للربِّ والربُّ للجسد* واللهُ قد أقام الربَّ وسيُقيمنا نحن أيضاً بقوَّته* أما تعلمون أنَّ أجسادكم هي أعضاء المسيح. أفآخذ أعضاء المسيحِ وأجعلها أعضاء زانيةٍ. حاشا* أما تعلمون أنَّ من اقترن بزانيةٍ يصيرُ معها جسداً واحداً. لأنَّه قد قيل يصيران كِلاهما جسداً واحداً* أمَّا الذي يقترن بالربِّ فيكون معه روحاً

الصلاة والصمت

كلّ سنة يعود إلينا مَثَلُ الإبن الضال كمسحة من نور تبدّد كل عتمة يأس، وتنهض بالنفوس المتعبة من أثقال الغربة البعيدة. إنّه النص الإنجيليّ الأفضل لكي نفهم أبعاد العلاقة مع الله واللقاء به في لحظة صلاة بعد نسيان طويل.

نحن نعرف أن الصلاة هي وسيلة اتصال وتواصل بين المخلوق والخالق، وأن المخلوق في لحظة الشدة يطلق من أعماقه الصلاة صرخة نحو الخالق فيقذف قلبه إلى خالقه حتى يتحد به. صرخة التواصل هذه تأخذ مكانها في مناخ محدد سنكتشفه معاً من خلال أحد الجوانب الهامة للمثل الذي سمعناه اليوم.

في بلد الغربة «رجع الإبن الأصغر إلى نفسه وقال كم لأبي من أُجراءَ يفضُل عنهم الخبزُ وأنا أهلِكُ جوعاً». صرخة اليأس تنطلق من الرجوع إلى النفس لإعادة الاتصال بالله والتواصل معه. في التوبة يعود الإنسان المخلوق إلى ذاته ليكتشف الحالة المزرية التي وصل إليها، وما الصلاة إلاّ تعبير عما يدور داخل النفس في ساعة حزنها على حالة الهلاك التي وصلت إليها، والتوجه إلى الله.

عندما يعي الإنسان اقترابه من الهلاك يصرخ إلى الله مستغيثاً. وبعد الصراخ يدخل في حالة الصمت. صراخه إلى الله طلباً للنجاة، يتحوّل إلى صمت مطبق. بعد التضرعات الحارة وتنهد الأعماق، تدخل الصلاة في مناخ من الصمت. كيف يحصل ذلك؟ عندما نصرخ لا نعود نسمع أي صوت آخر سوى صوتنا. الأصوات الأخرى المحيطة، كما صوتنا، تحدث ضجيجاً يحجب عنا سماع أي صوت آخر، لذا نحتاج إلى إسكاتها. وإذا أردنا أن نعرف إن كان أحد قد سمع صرخة استغاثتنا، فإننا نصغي بأشد انتباه لنعرف إن كان لصراخنا من استجابة، فنصمت. الصمت ضروري لأننا بواسطته نعرف نتيجة الصراخ. صمت النفس والجسد هو المناخ الضروري لتنمو صلاتنا ولتزدهر.

ولأن الصلاة صمت أبعد من الكلمات، يجب أن نتعلّم الصمت والهدوء حتى في ضجيج العالم من حولنا. هذا يتطلّب «تنسكاً في العالم».

العدد ٢٠١٠/٥

الأحد ٣١ كانون الثاني

أحد الإبن الشاطر

تذكار القديسَين الصانعي العجائب والعادمي الفضة كيرُس ويوحنا

اللحن الأول

إنجيل السَحَر الأول

واحداً* أُهربوا من الزنى. فإنَّ كلَّ خطيئةٍ يفعلها الإنسانُ هي في خارج الجسد. أمَّا الزاني فإنَّه يُخطئ إلى جسده* أم ألستُم تعلمونَ أنَّ أجسادَكم هي هيكلُ الروحِ القدسِ الذي فيكم الذي نِلتموهُ من الله وأنَّكم لستم لأنفُسِكم* لأنَّكم قد اشتُريتم بثمنٍ فمجِّدوا اللهَ في أجسادكم وفي أرواحكم التي هي لله.

الإنجيل

(لوقا ١٥: ١١-٣٢)

قال الربُّ هذا المَثَل: إنسانٌ كان له إبنان* فقال أصغرُهما لأبيهِ يا أبتِ أعطِني النصيبَ الذي يخُصُّني من المال. فقسَم بينهما معيشَتَه* وبعد أيامٍ غيرِ كثيرةٍ جمعَ الإبنُ الأصغرُ كلَّ شيءٍ له وسافرَ إلى بلدٍ بعيدٍ وبذَّرَ ماله هناك عائشاً في الخلاعة* فلمّا أنفق كلَّ شيءٍ له حدثَت في ذلك البلدِ مجاعةٌ شديدةٌ

ولكن لنبلغ ذلك يجب أن نتعلّم الصمت المادي أولاً، فنبدأ صلاتنا في إطار من السكون كأن نختار المكان والزمان الملائمين، فنصلي في صمت غرفتنا عند المساء وفجراً باكراً لنكتشف كيف يكون الصمت المادي بآذاننا وحواسنا فنصنع لنا مثله صمتاً آخر في قلوبنا. هذا يتطلّب ممارسة الصمت المطبق لنتمكّن من الإصغاء إلى صوت الله. علينا الإصغاء بالأذن لأدق الأصوات وأكثرها خفوتاً، كصوت تنفسنا مثلاً طارحين عنا كل اهتمام دنيوي. ومتى بلغنا سماع صوت تنفسنا، نقيمُ صلاتنا بتناغم مع إيقاع التنفس ونبضات القلب حتى لا يشوّش الجسد على حركتها. في حركة الصلاة المتناغمة هذه يرتفع القلب والعقل كما النفس مشدودين بحركة الروح القدس وهبوبه فنعود بكليتنا كأبناء إلى بيت الآب حيث يكثر خبز الحياة.

لكن الصمت لا يكون صمتاً حقيقياً بالعودة إلى الذات فقط، بل بالعودة إليها لإخراجها من ذاتها، من صمت اليأس إلى صمت السكون. تخرج النفس من صمت الموت لتتجه إلى صمت السكون الإلهي. هو خروج الصمت إلى الصمت. هو صمت يدخل صمتاً ويستقر فيه ليجد الراحة والسلام. تبدأ الصلاة في مناخ من الصمت لتتحول إلى صمت مطلق. تبدأ الصلاة كلمات لتصبح حالة من الصمت لعجز كل كلام عن التعبير، لأن الإنسان يدخل في اختبار المحبة الأكبر والرحمة الأعظم. فلننتبه كيف حصل لقاء الأب بالإبن العائد. كان الإبن قد استعد في غربته ليقول لأبيه «أخطأت إلى السماء وأمامك فاجعلني كأحد أجرائك». أما والده فلم يسمح له بأن يحسب نفسه كأحد الأجراء، قاطعه ولم يسمح له بمتابعة كلامه بل احتضنه معانقاً وقائلاً «هاتوا الحلّة الأولى واذبحوا العجل المسمّن وتعالوا لنأكل ونفرح».

الكأس المقدّسة التي تُعرض علينا في كل قداس إلهي وصرخة المرنم «ذوقوا وانظروا ما أطيب الرب» في أيام الصوم الكبير، كلها قادرة فعلاً أن تجعلنا نقول «ليذهب العالم ولتأتِ النعمة»، كلها قادرة أن تجعلنا نقرر تفضيل الخبز الجوهري على الرغبات، وتجعل الصلاة والصوم طعامنا اليومي الأساسي – الجوهري. هذه الكأس الإفخارستية قادرة، عندما نراها، على أن تنهض فينا القرار لنقول: «أقوم وأعود واقول لأبي: يا أبي قد أخطأت إلى السماء وأمامك فاقبلني الآن كأحد أجرائك»، فيذبح لنا ونأكل ونفرح بمشاركتنا في مجد ملكه إلى منتهى الدهر.

الكنيسة وشفاء الإنسان

لا يختلف إثنان على أن إنساننا المعاصر، في خضمّ مساعيه للتأقلم مع ما تقدّمه له الحداثة من أسباب الرفاهية والراحة وألوان الملاهي، بات تعباً من هموم الحياة وأعباء المعيشة. حياتنا اليومية، في الأسرة والمجتمع، في علاقاتنا الحميمة والواسعة، فقدت مقوّمات البساطة والوضوح، فأضحينا حائرين في تحديد أولوياتنا، حائرين في ما يتعلّق بحسم أمورنا، لا هدف واضح لنا في ما نسعى إليه. كثرة من الناس تحيا في المظاهر وتنأى

فأخذ في العَوَزِ* فذهب وانضوى إلى واحدٍ من أهلِ ذلك البلدِ فأرسلَهُ إلى حقوله يرعى خنازير* وكان يشتهي أن يملأ بطنهُ من الخرنوبِ الذي كانت الخنازيرُ تأكلُهُ فلم يُعطِهِ أحدٌ* فرجعَ إلى نفسِه وقال كم لأبي من أُجراء يَفضُلُ عنهم الخبزُ وأنا أهلِكُ جوعاً* أقوم وأمضي إلى أبي وأقولُ له يا أبتِ قد أخطأتُ إلى السماءِ وأمامك. ولستُ مستحقًّا بعدُ أن أُدعى لك ابناً فاجعَلني كأحَدِ أُجرائِك* فقام وجاء إلى أبيه. وفيما هو بعدُ غيرُ بعيدٍ رآهُ أبوهُ فتحنَّن عليهِ وأسرع وألقى بنفسِه على عنقه وقبَّله* فقال له الإبنُ يا أبتِ قد أخطأتُ إلى السماءِ وأمامك ولست مستحقًّا بعدُ أن أُدعى لك ابناً* فقال الأبُ لعبيده هاتوا الحُلَّة الأولى وألبِسوهُ واجعلوا خاتِماً في يدهِ وحِذاءً في رجلَيه*

بالكلية عن أي معنى جوهري لوجود الإنسان ولحياته.

ولكن في الناس مَن يطلبون الراحة الحقيقية والإستقرار والهدوء. يحاولون، هنا وثمة، أن يعثروا على ميناء الخلاص. يطالعون بعض الكتب، أو يلتجئون إلى المرشدين والأطباء النفسيين. منهم أيضاً مَن يظن أن في روحانيات الشرق الأقصى نفعاً لنفسه أو على الأقل مقداراً من الاستكانة والطمأنينة.

ما لا شك فيه أن إنساننا المعاصر وَهِنٌ عليل يخنقه إمّا القلق المداهم، أو ضربٌ عبثي من ضروب عدم المبالاة والإستسلام. لم يعد الإنسان اليوم صادقاً مع ذاته. نحاول أن نلهو عن مواجهة أنفسنا بشتّى العلل والمبررات. قلّة نادرة من الناس تواجه ذاتها برصانة وصدق لأن الحقيقة مؤلمة، ولأن «التعلّل بعلل الخطايا» هو الباب الأوسع الذي يختاره الأكثرون.

أما الإنجيل فيعلّمنا غير هذا. يخبرنا الكتاب بأن الإبن الشاطر حين شاهد الخنازير تلتهم الخرنوب «عاد إلى نفسه» وقال بصدق وتصميم «أقوم، وأذهب إلى أبي، وأقول له يا أبتي، لقد أخطأت إلى السماء وأمامك، ولست مستحقاً أن أدعى لك إبناً، إجعلني كأحد أُجرائك» (لو ١٥: ١٩). هذا الشعور بسوء حالنا وحاجتنا إلى المسارعة إلى المسيح، هو سرّ التوبة، الذي به وحده يكمن شفاء إنساننا اليوم.

ولكنّ ما يغيب اليوم عن انتباه الأكثرين هو أن المسيحية وحدها قادرة على بلسمة جراح الإنسان وشفاء نفسه. المسيحية ليست نظاماً فكرياً فلسفياً ولا هي مجرّد ناموس ديني أخلاقي. ما لا يعيه الأكثرون هو أن المسيحية هي قبل أي شيء كنيسة، وأن الكنيسة، في مفهومها الإنجيلي الأقدم، ما هي إلاّ مستشفى لمداواة النفوس والأجساد حتى يعود الإنسان إلى الله ويمتلئ من نعمة الروح القدس. يجب أن يكون واضحاً ان شفاء الجسد ليس الغاية بحد ذاته، الغاية هي العودة إلى الله. فإذا لم يعد الإنسان بعد شفائه إلى الله فلا معنى لهذا الشفاء.

إن الإيمان بالمسيح من غير اختبار الشفاء الحقيقي بالمسيح، ليس إيماناً حيًّا. الإنسان يكون ساعتئذٍ كمن يثق بطبيبه، ولكنه يرفض الإنصياع للعلاج الذي يصفه له.

تقليد آبائنا القديسين ليس مقولة فلسفية ولا هو نظام أخلاقي. ليس نظريات إيديولوجية بل هو منهاج طبي روحي لمعالجة الإنسان. ولا يجوز في هذا السياق أن نشبّهه بالطب النفسي، كون قوى النفس المصلّية في الإنسان تحتاج، حين تذوي وتضعف أو تتعطّل، إلى معالجة تقوّم وظيفتها، وتزوّدها بالغذاء الروحي والنور، نور النعمة، الذي يشفيها.

هذه اللغة الشفائية، أو المقاربة الطبية للاهوت، لطالما رافقت كرازة الأنبياء في العهد القديم، وبشارة الرسل في الإنجيل، وإرشاد آباء الكنيسة في حرصهم على استقامة الإيمان والخبرة الروحية. فإن المبدأ الذي سهر آباء مجامع الكنيسة وكتّابها النسكيون على صونه قبل حدقة العين كان «استقامة العقيدة» التي تؤدّي إلى «استقامة الشفاء».

وقد حدّد آباؤنا مفهوم المرض في الإنسان وأوضحوا أن انفصال

واتوا بالعِجْلِ المسمَّنِ واذبحوه فنأكلُ ونفرَح* لأنَّ ابنيَ هذا كان ميتاً فعاش وكان ضالاً فوُجد. فطفِقوا يفرَحون* وكان ابنُه الأكبرُ في الحقلِ. فلمَّا أتى وقرُبَ من البيتِ سمعَ أصواتَ الغِناء والرقصِ* فدعا أحد الغِلمانِ وسأله ما هذا* فقال له قد قدِمَ أخوك فذبحَ أبوك العجلَ المسمَّن لأنَّه لقيَه سالماً* فغضبَ ولم يُرد أن يدخل. فخرج أبوه وطفِقَ يتوسَّلُ إليه* فأجاب وقال لأبيه كم لي من السنين أخدِمُك ولم أتعدَّ لك وصيَّة قطُّ وأنت لم تُعطِني قطُّ جَدْياً لأفرحَ مع أصدقائي* ولمَّا جاء ابنُك هذا الذي أكلَ معيشتَك مع الزواني ذبحتَ له العجلَ المسمَّن* فقال له يا ابني أنت معي في كل حينٍ وكلُّ ما هو لي فهو لك* ولكن كان ينبغي أن نفرَحَ ونُسرَّ لأنَّ أخاك هذا كان ميّتاً فعاش وكان ضالاً فوُجد.

الإنسان عن الله بالخطيئة يؤدّي إلى مرض الشخص وتقوقعه حول ذاته وأنانيته. آدم وحواء حين سقطا، سعيا بشتّى الوسائل إلى التواري والابتعاد عن أنظار الله، بعد أن فقدا الإلفة والشركة معه. شعرا بعريهما وراحا يبحثان عن وسائل لا علاقة لها بالله من أجل أن يسترا عيبهما. وبات كلٌّ منهما يلقي اللوم على سواه في ما ارتكبه من معصية. لم يعودا قادرَين على احتضان الآخر أو تعهّده. باتا أنانيين لا يهمهما سوى حماية أناهما من لوم الله وثقل الشعور بالذنب. فقدا «المحبّة الأولى» التي جعلت آدم يقول «هذه الآن عظمٌ من عظامي ولحمٌ من لحمي» (تك٢: ٢٣).

حين يفقد الإنسان نعمة الله التي تستره وتظلّل حياته يخسر كل شعور بالإستقرار والطمأنينة، ويسعى بلهفة إلى طلب ضمانات بشريّة ومادية من أجل الحفاظ على شيء من الإتزان في حياته. يسعى جاهداً إلى الإستهلاك والغنى المادي والسلطة والمراكز لكيما يجد فيها راحته. ولا يدرك أن «الحاجة هي إلى واحد» وأنه بائس مريض لأنه انفصل عن المسيح معطي الحياة، وطبيب النفوس والأجساد.

متى انفصل الإنسان عن المسيح تمرض مَلَكَة المحبة فيه. تصبح محبّته أنانيةً، لا يحبُّ الآخر من أجل الآخر، بل يسعى في كل عاطفة أو خدمة إلى ما يصقل أنانيته ويوافق مصلحته الشخصية. يصبح قوامُ محبّته الأخذ، وغاية صداقاته المصلحة الذاتيّة التي ترتدي الأقنعة والذرائع.

أما الكنيسة فتعلّمنا أنّ العطاء مغبوطٌ أكثر من الأخذ (أع ٢٠: ٣٥) وأنه «ليس لأحدٍ حبٌّ أعظم من هذا أن يضع أحدٌ نفسه لأجل أحبّائه» (يوحنا ١٥: ١٣). تعلّمنا الكنيسة أن نحبّ الله والقريب حبًّا حقيقيًّا، كحبّ المسيح لنا. «كما أحبّني الآب كذلك أحببتكم أنا» (يوحنا ١٥: ٩). وهذا التعليم ليس نظرياً، بل يقوم على سرّ التوبة الذي هو العودة إلى الطبيب الحق، وعلى الصلاة والصوم، دواء النفس وعلاجها، وعلى نعمة الروح القدس التي تشفي المنكسري القلوب وتمنح التائبين كل مغفرة وعزاء.

دخول السيد إلى الهيكل

في الثاني من شباط تُعيِّد كنيستنا المقدسة لتذكار دخول ربنا يسوع المسيح إلى الهيكل. للمناسبة يترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب عند السادسة من مساء الإثنين ١ شباط ٢٠١٠ وخدمة القداس الإلهي عند التاسعة والنصف من صباح الثلاثاء ٢ شباط في كنيسة دير دخول السيدة في الأشرفية.

ترقية كاهن

في مناسبة عيد أبينا البار أنطونيوس الكبير ترأس سيادة راعي الأبرشية المتروبوليت الياس خدمة صلاة الغروب مساء السبت ١٦ كانون الثاني، وقد رقّى سيادته خلال الصلاة قدس الأب ديمتري خوري، كاهن رعية القديس ديمتريوس، إلى رتبة متقدِّم في الكهنة.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb